

مراجعة كتاب

استهلاك الحياة

عبد الإله فرح⁽¹⁾

عنوان الكتاب: استهلاك الحياة.

المؤلف: زيجمونت باومان.

المترجم: حسن احجيج.

الناشر: دار صفحة سبعة للنشر والتوزيع في السعودية.

تاريخ النشر: 2022.

عدد الصفحات: 262 صفحة.

في هذا الإطار يشبه باومان البناءات والعلاقات الاجتماعية التي تؤسس تجمعات اجتماعية ما بعد الحداثة مجازيًا بالمادة في حالتها السائلة، نظرًا إلى تعرضها للضغط، وإفرازها الهشاشة، وقابليتها للانكسار، وخضوعها لتأثير الزمن. ووفقًا لباومان، فإنها لا تحافظ على شكل محدد، حيث لها خصائص السيولة والقابلية للتطوع. وبالنسبة إليه، هذه هي طبيعة الروابط المعاصرة التي تتميز بالتحويلات المستمرة، وعدم الاستقرار. وهكذا، ينشأ مفهوم المجتمع السائل، وهو تعريف يشمل أيضًا علاقات العمل، وخصوصية العلم، وأنماط الاستهلاك، على غرار ما نجده مثلًا عند مايكل والزر (Michael Walzer)⁽³⁾ في استعماله ((وصف السميك مقابل الرفيع في مناقشته للإشكال القبيي في نقاشات العدالة، وكذلك مع توصيف جوزيف ناي (-10 seph Nye)⁽⁴⁾ للقوة في العلاقات الدولية بين الخشونة والنعموة، وبالطبع تصور المانيفستو الشيوعي عن الصلب الذي يتخثر أي الرأسمالية التي تتمدد في الأسواق والمجالات فتتجه إلى تغيير صلب أفكارها وقيمها فلا يتبقى من الأصل الكثير، وهو ما تحقق بدرجة كبيرة)⁽⁵⁾.

تتميز الحداثة السائلة بأنها تحاول أن تستبدل بأنماط الحياة القديمة والتقليدية والمتوارثة اجتماعيًا أنماطًا أخرى جديدة تتلاءم مع أوضاع الحياة الحديثة والمعاصرة، فالحداثة عند باومان عملية إذابة كل ما هو صلب، وهو ما يتطلب أن تحتل المرونة بوصفها الشكل المميز للحداثة مكان الصلابة ((بوصفها الوضع المثالي للتعامل مع الأمور والأشياء، فالأشياء الصلبة كافة (بما في ذلك الأشياء الصلبة التي نرغب فيها مؤقتًا) يمكن التعامل معها ما دامت تعد بأن

يعد زيجمونت باومان (Zygmunt Bauman) من علماء الاجتماع الذين لا تروقهم فكرة الحداثة كثيرًا، فهو يعتمد في تحليله على كل من مدرستي (فرانكفورت الألمانية، وما بعد البنيوية الفرنسية)، من أجل بناء سوسيولوجيا تنتصر لمرحلة ما بعد الحداثة. فقد عاش في زمن الحروب والمآسي، وشهد عن قرب جرائم النازية والشيوعية، وتعرض للتمييز والاضطهاد بسبب أصوله اليهودية، فتعلم أن العقل ليس كافيًا لإنشاء نظام اجتماعي مثالي، ولا لإحياء الإنسانية المفقودة. ولذلك نجده ينتقد الفلسفة الأوروبية التي خرجت من عصر الأنوار، وحاولت تدمير التقاليد المحلية، والتنوع الاجتماعي، واستعمار الشعوب بحجة بناء نظام عالمي موحد. بالمقابل، يدافع عن مرحلة ما بعد الحداثة التي تقبل التعددية الثقافية، والتقاليد الجماعية المتنوعة، والتخلص من فكرة اليقين المطلق، والاعتراف بوجود معايير متعددة للحق والخير والجمال⁽²⁾. فيرى أن السوسيولوجيا اليوم مدعوة إلى ابتكار إطار فكري متجدد ينسجم مع مرحلة المجتمعات الحالية التي أطلق عليها اسم (الحداثة السائلة أو الدافقة) التي تتميز بالتغير المستمر، والانفلات من القواعد الثابتة.

(3) مايكل والزر (من مواليد 03 مارس 1935) هو عالم سياسي وفيلسوف أمريكي. شغل منصب أستاذ مشترك في معهد الدراسات العليا في برونزي، نيو جيرسي، ويشغل أيضًا منصب رئيس تحرير فخري لمجلة ديسنت، وهي مجلة فكرية كان مرتبطًا بها منذ سنوات دراسته الجامعية في جامعة برانديز. كتب مؤلفات ومقالات في مجموعة واسعة من الموضوعات، منها في الأخلاق السياسية، بما في ذلك الحروب العادلة وغير العادلة، والوطنية، والأصول، والإصلاح الاقتصادي، والنقد الاجتماعي، والتسامح، والإلزام السياسي. <https://www.ias.edu/sss/faculty/walzer>

(4) جوزيف ناي (من مواليد 19 يناير 1937) هو عالم سياسي أمريكي، وأستاذ سابق وعميد كلية جون كينيدي الحكومية في جامعة هارفارد سابقًا. شغل منصب مدير معهد الدراسات الأمنية بين الشرق والغرب، ومدير المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية، وعضو اللجنة الاستشارية لمعهد الاقتصاد الدولي. وشغل مناصب حكومية عدة، من بينها مساعد وزير الدفاع للشؤون الأمنية الدولية في عهد بل كلينتون. واشتهر بتقديمه لمفهوم القوة الناعمة والقوة الذكية اللذين <https://2009-2017.state.gov/s/p/fapb/185594.htm> كانا أساسين في صياغة السياسة الخارجية الأمريكية في عهد باراك أوباما.

(5) زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، حجاج أبو جبر (مترجمًا)، هبة روفع عزت (مقدمة)، ط 1، (بيروت/ لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016)، ص 15.

(1) باحث مغربي، مختبر "التراب، البيئة والتنمية"، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل القنيطرة، المغرب.

(2) Zygmunt Bauman, Intimations of Postmodernity, (New-York: Routledge, 1992), P.102.

الوقت نفسه السلع التي يروجون لها، فهم في نفس الوقت البضاعة ووكلاء تسويقها، حيث يتميزون بإعادة تصنيف أنفسهم كسلع: أي كمنتجات قادرة على لفت الانتباه وجذب الطلب والعملاء⁽⁷⁾. وهذا الأمر هو الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الاستهلاكي، وهو الأطروحة المركزية التي يتناولها الكتاب. إذ يقدم باومان تحليلاً نقدياً لهذا النمط الاستهلاكي، ويثير عددًا من الأسئلة حول الهوية الشخصية، والعلاقات الاجتماعية، والقيم الثقافية في المجتمعات المعاصرة.

في الفصل الأول المعنون ((النزعة الاستهلاكية في مقابل الاستهلاك))، يلاحظ باومان أن المجتمعات الإنسانية قد عرفت انتقالاً من الاستهلاك إلى النزعة الاستهلاكية، ((عندما أصبح الاستهلاك يحظى بأهمية كبيرة في حياة غالبية الناس، وعندما أصبح هدف الوجود ذاته؛ وعندما أصبح اقتصاد العيش المشترك للبشر يرتكز على قدرتنا على الإرادة على الرغبة وعلى الشهية، وخاصة قدرتنا على اختبار هذه المشاعر بشكل متكرر))⁽⁸⁾. إذ يشير باومان إلى أن هذا الانتقال حدث، وتسارع في ظل ظهور (الحدائث السائلة)، فيرمز التغيير من (الحدائث الصلبة) إلى (الحدائث السائلة) أيضاً إلى التحول من مجتمع المنتجين إلى مجتمع المستهلكين.

يُصور باومان النزعة الاستهلاكية كنوع من الترتيبات الاجتماعية التي تنتج عن تشييء الرغبات والأمان والشهوات البشرية المبتذلة والدائمة، وتحويلها إلى القوة الدافعة والتشغيلية للمجتمع، القوة التي تنسق بطريقة منهجية إعادة الإنتاج والاندماج الاجتماعي، والتراتب الاجتماعي، وتكوين الأفراد البشريين، فضلاً عن لعب دور رئيس في عمليات التعريف الذاتي للفرد والجماعة، وفي اختيار سياسات الحياة الفردية، وتنفيذها⁽⁹⁾. وما يميز مجتمع المستهلكين أنه يزدهر في قدرة أعضائه على البقاء في حالة دائمة من عدم الرضا، خصوصاً عندما لا تتطابق تطلعاته وأهدافه مع الحياة الاستهلاكية. وكما يقول باومان: ((يستمد

تظل قابلة للذوبان وتمثل إليه))⁽⁶⁾. ومن هنا، تصبح المرونة من المطالب المقدسة لدى المجتمعات المعاصرة، ومسعى وراء الكمال من أجل الاستقرار، لأنها تعمل على الزيادة في نمط الاستهلاك التي تتمثل في التركيز المتزايد على الفردية والتنظيم الذاتي، وكذلك الانضباط الذاتي وتعزيز الهويات الفردية.

وهكذا، يمكننا أن نرى أن الحدائث السائلة التي تنادي بالمرونة والتغيير المستمر تؤدي إلى زيادة الاستهلاك والفردية، وهو ما يناقشه باومان في عدد من أعماله.

منذ أكثر من ثلاثين عامًا، بدأ علماء الاجتماع في دراسة كمية السلع التي يستهلكها الأفراد، وتبين لهم أن ما يقتنيه الفرد يؤثر في طريقة تفكيره وسلوكه. لذلك، أصبحت قضية الاستهلاك واحدة من الموضوعات الأساس في مجالات البحث السوسولوجي والأنثروبولوجي، نظرًا لدورها في التحكم بسلوك الأفراد. فالاستهلاك جزء حيوي من حياة الأفراد والمجتمعات في الأنظمة الرأسمالية، وهو يتأثر بعدد من المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، ما يؤدي إلى تشكيل المجتمعات البشرية، وتوزيع الثروات والسلطة. في هذا السياق، نشر كتاب ((استهلاك الحياة Consuming Life)) للسوسولوجي باومان لأول مرة باللغة الإنكليزية في عام 2007. يعد هذا الكتاب واحدًا من أبرز الكتب التي تنتقد المجتمعات الغربية، وثقافتها الاستهلاكية. وقد ترجم الباحث المغربي حسن احجيج هذا الكتاب إلى اللغة العربية حديثًا، ونشر في دار صفحة سبعة للنشر والتوزيع في المملكة السعودية. يهدف هذا الكتاب في المقام الأول إلى تعزيز سوسولوجيا الاستهلاك نظرًا إلى دورها في فهم التحولات التي تطرأ في اتجاهات المستهلك.

يوضح باومان في كتابه ((استهلاك الحياة)) كيف أصبح الأفراد أكثر تشابهًا مع السلع التي تشتري، وتباع، وتسوق، من أجل الحصول على التقدير والاعتراف الاجتماعي، وذلك عبر مجموعة من الطرق، مثل بناء صفحة على مواقع التواصل الاجتماعي، أو من خلال تضخيم سجلات إنفاقهم، أو عن طريق جمع النقاط بهدف الترشح للهجرة. وفقًا لبأومان، فإن ((مثل هؤلاء هم مروجو سلع، وهم في

(7) زيجمونت باومان، استهلاك الحياة، حسن احجيج (مترجمًا)، ط1، (الجيل/ السعودية: دار صفحة سبعة للنشر والتوزيع، 2022)، ص16.

(8) زيجمونت باومان، استهلاك الحياة، ص51.

(9) زيجمونت باومان، استهلاك الحياة، ص54.

(6) زيجمونت باومان، الحدائث السائلة، ص28، 27.

يوما بعد ذلك. بل يتعلق الأمر أولاً وقبل كل شيء بأن يظل المرء في حركة دائمة⁽¹⁴⁾. إضافة إلى ذلك، يتناول باومان ما يسميه ((الولادات المتسلسلة)) التي تميز الحياة الاستهلاكية، إذ يقوم الأفراد اليوم ببناء الذات في إطار مواكبة المعايير المتغيرة بسرعة، والتخلص من الصورة التي فقدت فائدتها أو سحرها، ووضع صورة عامة جديدة في مكانها⁽¹⁵⁾. ومن ثم، يعد كل مرحلة في حياة المستهلك ولادة جديدة، حيث يمكن التخلي عنها في أي وقت، وذلك بناءً على طبيعة السلع المطلوبة للاستهلاك. وعلاوة على ذلك، تسهم الثقافة المعاصرة في ضعف الهويات، وتفكك الروابط الاجتماعية، حيث أصبحت الروابط البشرية هشّة، وسهلة التفكك، والكسر. وأصبحت الهويات محض مشروعات ((يجب بذل جهد فردي من أجل امتلاكها ثم النضال يوميا للحفاظ عليها))⁽¹⁶⁾.

يحاول باومان في الفصل الأخير ((الأضرار الجانبية للزعة الاستهلاكية))، أن يظهر أن الضرر الجانبي الأساس للزعة الاستهلاكية يتمثل في التسليح الكلي والشامل للحياة البشرية⁽¹⁷⁾، فسوق السلع متوافرو دائماً لمساعدة الأفراد على البدء من جديد لعملية الاستهلاك، فثمة اختراق للحياة الاجتماعية من طرف أشكال عدة من السلع، فضلاً على أن الزعة الاستهلاكية أصبحت لديها صبغة مادية على العواطف مثل الحب والاهتمام العاطفي، وأضرارها الجانبية مبعثرة في أنحاء الطيف الاجتماعي للمجتمعات المتقدمة جميعها. ويركز باومان في كتابه على فئة يدعوها المستهلكين الفاشلين الذين ليس لديهم قيمة سوقية، فهم ((أعشاب ضارة قبيحة لكن جشعة، لا تضيف شيئاً إلى الجمال المتناغم للحديقة لكنها تجعل النباتات تعاني من الجوع بسبب امتصاص وابتلاع كثير من الغذاء))⁽¹⁸⁾. وهذه الفئة هي الفقراء الذين يصنفون على أنهم من الخسائر الجانبية للزعة الاستهلاكية، لكونهم محض مصدر للقلق والإزعاج، بوصفهم ((مستهلكين معيبين، لأن أهم الواجبات الاجتماعية التي لا يقومون بها هي الشراء النشط

مجتمع المستهلكين روحه العدائية وزخمه من السخط الذي ينتجه بإتقان))⁽¹⁰⁾.

أما في الفصل الثاني ((مجتمع المستهلكين))، يستكشف باومان الطرق التي تؤثر بها الثقافة الاستهلاكية في جوانب الحياة الاجتماعية جميعها. بعبارة أخرى، يمثل مجتمع المستهلكين نوع المجتمع الذي يروج لاختيار أسلوب الحياة، واستراتيجية الحياة ذات النزعة الاستهلاكية، أو يشجع عليها، أو يفرضها، ويكره الاختيارات الثقافية البديلة جميعها؛ إنه مجتمع يكون فيه التكيف مع مبادئ الثقافة الاستهلاكية، واتباعها بصرامة⁽¹¹⁾، أي إنه يجب على الشخص أن يتبع تلك المبادئ حتى لا يكون عرضة للتهميش والإقصاء الاجتماعيين.

يؤكد باومان أن الأفراد عند استهلاكهم، فإنهم بذلك يحاولون التعبير عن انتمائهم الاجتماعي، فالاستهلاك يعني استثمار الفرد في انتمائه الاجتماعي، الشيء الذي يترجم في مجتمع المستهلكين بالقبالية للبيع؛ الحصول على الخصائص التي خلقت من قبل طلب سوقي على السلع، أو إعادة تدوير الخصائص الموجودة سلفاً في السلع التي يمكن أن تخلق طلباً عليها⁽¹²⁾. ووفقاً لباومان، فإن الغرض الأساس للاستهلاك في مجتمع المستهلكين ليس إشباع الحاجات والرغبات والإرادات، وإنما هو تسليع المستهلك أو إعادة تسليعه: رفع المستهلكين إلى مستوى سلع قابلة للبيع⁽¹³⁾، ومن ثم، فإن ما يجعل من الإنسان عضواً حقيقياً في المجتمع هو كونه سلعة استهلاكية قابلة للبيع.

يشير باومان في الفصل الثالث من كتابه ((ثقافة الزعة الاستهلاكية)) إلى أن المجتمع الاستهلاكي يحث أفراداه على البقاء في القمة باستمرار، من أجل الحصول على الاعتراف المستمر، من خلال إيجاد احتياجات ورغبات جديدة بصورة مستمرة. وكما يقول باومان: ((لا تتعلق حياة المستهلك، الحياة المستهلكة، بالكسب والتملك. ولا يتعلق الأمر حتى بالتخلص مما تم الحصول عليه أول أمس وعرضه بفخر

(14) زيجمونت باومان، استهلاك الحياة، ص 172.

(15) زيجمونت باومان، استهلاك الحياة، ص 177.

(16) زيجمونت باومان، استهلاك الحياة، ص 194.

(17) زيجمونت باومان، استهلاك الحياة، ص 209.

(18) زيجمونت باومان، استهلاك الحياة، ص 217.

(10) زيجمونت باومان، استهلاك الحياة، ص 89.

(11) زيجمونت باومان، استهلاك الحياة، ص 96.

(12) زيجمونت باومان، استهلاك الحياة، ص 102.

(13) زيجمونت باومان، استهلاك الحياة، ص 103.

لأننا نود أن نعرف مزيداً عن هذه الفئة من المستهلكين السلبيين.

يمكن عد كتاب ((استهلاك الحياة)) بأنه من الأعمال الرئيسية في علم الاجتماع المعاصر. فهو يستوجب أن يطلع عليه الجمهور العربي، نظراً إلى أنه يضعنا أمام اعتبارات نظرية مهمة للمناقشة والبحث، فضلاً على أنه يدفعنا إلى التفكير في طبيعة حياتنا، خصوصاً في المجتمعات العربية (المشرق العربي وشمال أفريقيا) التي أصبحت تتسم بالاعتماد الشديد على الاستهلاك في شتى أشكاله (المادية والرمزية). إلى جانب ذلك، فإن مجموعة من الأفراد في العصر الحالي في أنحاء العالم جميعها، أصبحت بدورها تجني الثمار، وتحقق نجاحاً وازدهاراً، لأنها تجد طلباً علمياً بسبب قدرتها على تسويق نفسها. ومن الناحية الأخرى، يواجه أولئك الذين لا طلب عليهم عزلة اجتماعية، وأحياناً إقصاء. وبالنتيجة، يمكن أن يؤثر ذلك في خلق روابط اجتماعية هشّة وضعيفة، حيث يصبح الاستهلاك هنا هو المعيار الرئيس لمنزلة الفرد داخل المجتمع. وهو ما يجعل من الحالة الإنسانية متقلبة بسبب بحثها عن الاستقرار استناداً إلى السوق.

في الختام، يتميز الكتاب بروعة أسلوبه، ووضوح مفاهيمه، فهو كتاب مثير للاهتمام لأنه يستحوذ على الانتباه بمجرد تصفحه، إلى جانب أنه يناسب القراء كلهم. ويتسم أيضاً بأنه يزخر بمعارف قيمة ومهمة لمن يهتم بسوسيولوجيا الاستهلاك. وفي رأينا المتواضع، فهو من الأعمال الرئيسية التي ستبقى معنا دائماً، نظراً إلى أنه يعكس تأثير الحداثة السائلة في حياتنا اليومية. لذلك، نجد باومان ينهنا إلى الاستيقاظ من النوم العميق الذي تحدثه النزعة الاستهلاكية في مجتمعاتنا اليوم لأننا لن نكون قادرين مستقبلاً على مواكبة عالم تحكمه أدوات النزعة الاستهلاكية.

والفعال للسلع والخدمات التي يقدمها السوق⁽¹⁹⁾. ومن ثم، يعد الفقراء (خصوصاً) غير مرغوبين في المجتمع الاستهلاكي، لأنهم يمثلون طبقة معزولة ومُتجاهلة للنزعة الاستهلاكية. ولهذا، يستبعدون لأنهم نتجوا عن النموذج الاستهلاكي للحياة، لكن في حال مشاركتهم وإغوائهم بالحياة الاستهلاكية، فإن ذلك سوف يزيد من معاناتهم وفقهم، وسيمنعهم من التصرف تصرفاً صحيحاً.

ويخلص باومان إلى أن إحدى أكثر الخسائر الجانبية للنزعة الاستهلاكية هو ما يرتبط بالمجال السياسي الذي أصبح في نظره يعاني الهزال والضمور المستمرين، لأنه فوض قوى السوق غير السياسية بمزيد من الوظائف التي كانت تدار سابقاً بطريقة سياسية⁽²⁰⁾، الشيء الذي أسهم في الإضرار بالدولة الاجتماعية والمؤسسات الاجتماعية والسياسية، وفي خلق عدد من الضحايا الجانبيين للنزعة الاستهلاكية. ويتعامل باومان مع قضية الاستهلاك بوصفها قضية ثقافية واقتصادية وسياسية. علاوة على اعتماده على المقارنة التاريخية لكثير من البيانات حول (مجتمع المنتجين) مقابل (مجتمع المستهلكين). فهو من خلال ذلك، يسعى إلى سوسيولوجيا نقدية للنزعة الاستهلاكية، قادرة على أن تتابع تداعيات المجتمع الاستهلاكي على حياة الأفراد والجماعات، وتأثيرها في الروابط الاجتماعية، إلى جانب ارتباطها بمستويات الاستهلاك، وتحرير الاقتصاديات الوطنية، وخصخصتها، وغيرها.

عموماً، يناقش باومان في كتابه العوامل التي تدفع الأفراد إلى الانخراط في النزعة الاستهلاكية، لكنه يفشل في تقديم تحليل شامل للفئة التي لا تتبع هذا النمط من الاستهلاك، فيعني فقط بأولئك الذين يستهلكون بصورة مفرطة، وكأنه يريد أن يقدم لنا أسلوباً يعتمد على النموذج المثالي للاستهلاك في زمن الحداثة السائلة. وفي المقابل، يصور لنا (المستهلكين السلبيين) بأنهم فقراء، لأنهم لا يتوافرون على الموارد اللازمة للمشاركة في النزعة الاستهلاكية، مع العلم أنه يقصد بالمستهلكين السلبيين أولئك الذين يرضون بما يملكونه، ولا يتأثرون بالنزعة الاستهلاكية التي تفرضها الأسواق. ولهذا، نجد أن هذه المسألة غير واضحة للغاية،

(19) زجمونت باومان، استهلاك الحياة، ص 220.

(20) زجمونت باومان، استهلاك الحياة، ص 251.

المصادر والمراجع

بالعربية

1. باومان. زيجمونت، الحداثة السائلة، حجاج أبو جبر (مترجمًا)، هبة رءوف عزت (مقدمة)، ط 1، (بيروت/ لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016).

2. باومان. زيجمونت، استهلاك الحياة، حسن احجيج (مترجمًا)، ط 1، (الجبيل/ السعودية: دار صفحة سبعة للنشر والتوزيع، 2022).

بلغة أجنبية

1. Bauman. Zygmunt, Intimations of Postmodernity, (New-York: Routledge, 1992).